المال الحلال

في

ثرى الأجيال

حدثنا ابن عربان قال:

«ما زلت أستعيد الخواطر والذكريات مع خطاب أبي العيال...

ما فات من حال الحياة، تسرع بنا الخطى فما ندري في حلم نحن أم في حقيقة.. في يقظة أم في سبات...

حرصت أن أحمل أمانة أبي العيال...
فرحت يوماً بعد يوم أسرح مع الخيال على الشاطىء الطويل...
أجلس إلى الرمال ساعات طوال...
فأرى على صفحة الماء الصقيل صورة أبي الهول تداعبها رعشات النسيم...،
يذهب بها مرتد الموج ويعود...، ناطقة ضاحكة كأنها تقول:
«تلك هي الحياة...»

حملت خطاب أبي العيال مع صور الأطفال إلى مجلس الكرام...
يقرؤه الأصحاب ويتأملون الأحباب...
يذكرون خوالي الأيام..، يترحمون على زمان مضى ويستسقون الله عهداً انقضى...
يتساءلون ـ في المجلس ـ عن اليوم والأمس..، أما كان الأمس أرحم وأنعم..؟؟
ماذا عن مستقبل الصغار في الغد القريب..؟؟ غد لا يبدو لنا منه إلا حالك الظلام...»

ثم انتقل ابن عربان إلى القول:

«وما زالت دعوة أبي العيال زيارة الشمال تطل من جعبة الأماني تحث الشوق الدفين وتلهب الحنين...
حتى أبرمت النية على الترحال إلى الجبال مع الربيع.. فما كنت ممن يعتاد البرد أو يحتمل الصقيع...
وما كاد الدفء يشيع ـ بعد رحيل ذاك الشتاء ـ حتى أبرقت لأبي العيال أخطره

القدوم إليه راجياً ألا أثقل عليه...»

قال ابن عربان:

«كان لقاء أبي العيال في المطار لقاء اختلطت فيه الضحكة بالدموع والحسرة برفيف الفرحة في حنايا الضلوع...
شغلنا حديث الشوق، وتوالي الخواطر في الطريق تقطعها بنا سيارة أبي العيال الصغيرة برفق وبراعة، فما ندر إلا والسيارة تلف بنا منعطفات تضيق..، وترقى التلال وتتسلق... تسلق المجرب الواثق العتيق...

وما هي إلا بضعة أميال حتى طالعتنا أم العيال بزغرودة ترف رفيف وارف الظلال..، ترحب بصديق الأيام الخوالي..، وتشجع العيال على الإقدام للترحيب بالضيف الغالي...، فاجتمع حولي الأطفال يرحبون بالضيف الجليل...

قادتني المجموعة السعيدة على درب بالحصا مفروشة..، بأساور الجوري معروشة..، وبعرائش الياسمين مرشوشة..

يداعب براعمها رفيف أجنحة النحل..، وتطرب لسمارها من الدوري والشحارير الفنن..، حتى أدركنا مصطبة الدار..، دار الطين..، تلك التي وصفها لي أبو العيال في خطابه..، فجعلها ـ لديه ـ أثمن من دور المليون تثمن ـ في المدينة ـ بالدولار اللعين..

توزعنا الجلوس على أرائك المصطبة الوثيرة..، وشرعت أعب من عبير الأرض والورود..، وأمتع النظر من وجوه العيال وقد أشرقت بالحمرة على الخدود...

كان عهدي بأطفال أبي العيال ـ هناك ـ أنهم دائموا المرض شديدو الحساسية لكل عرض..، ذابلوا الوجنات..، يشكون الوهن والألم من كل الجهات
وإذا بهم وقد أشرقت بالعافية الوجوه... وأزهرت بالصحة القدود وأينعت مع البهجة النهود

قلت ـ ما شاء الله ـ أراك يا أبا العيال والأولاد في أحسن حال والصحة عال العال..

هل اهتديت إلى طبيب قدير..، هل العيادات عندكم هنا في الجبال قد أصابها الإصلاح والتطوير فغدت متقدمة الأطوار..؟؟

عهدي بك ـ هناك عندنا ـ لا تني تبحث بين الأطباء عمن ينقذ الأطفال من تحسس عضال...، أو مما استعصى من السعال...، أو ما أزمن من إمساك أو إسهال..

ضحك أبو العيال وحمد الله قائلاً:

«وحياتك يا ابن عربان لم نذهب لطبيب منذ قدمنا الجبال...

طبيبنا ـ هنا ـ هذا الثرى نعمل فيه بجد وإقدام...، والمدارس يذهب إليها الأطفال سيراً على الأقدام..، وما نأكل من طازج الطعام..، لا معلبات.. لا «فروزن».. لا أصباغ.. لا ألوان..

رغيفنا من قمح هذه الأرض نخبزه على حطب التنور..، والعسل تلك مناحله..، والثمار شرعت في الانعقاد على الأشجار..، والخضار من كل لون نقطف منها كما نهوى كل حين..

مكيفنا دار الطين...، نأوي إليها في حر الصيف اللافح فلا نمل من لطف نسيمها البارد العليل...، ونلجأ إليها أيام الثلج والبرد الشديد..، فنلقى مع جمر الموقد في الركن المعتاد حضناً من الدفء السعيد...

وأشرقت عينا أم العيال بفرح غامر وهي تضيف إلى الحديث نغمة حلوة تصف فيها نشوة الإنسان عندما يحيا في أحضان الطبيعة وينعم ببركة السماء...

يقلب التراب...، يزرع الحبوب...، يرقب النبت يعلو..، والندى يترقرق..، والثمار تنضج..، النحل يسعى..، والعسل يقطع...، وكل ما حولك يشدو ويسطع...

وتبارى العيال في وصف المنجزات...، ووعدني كل منهم أن يريني ـ على

الطبيعة ـ جانب الأرض الذي تكفل رعايته..، ووافر الثمر مما اعتنى بسقايته...

ثم شرعنا ـ في مجلسنا ذاك ـ على مصطبة الدار نتبادل ألطف الذكريات..
ونتناول بين الحين والحين ما لذ وطاب..، من بواكير ثمار الصيف القادم على الأبواب..، ونرشف من أقداح الشراب.. ما ادخرته أم العيال من ثمار الليمون والبرتقال...

تذكرنا مجلس الكرام في سالف الأيام
وترقرقت عينا أبي العيال بظلال الدموع لذكرى قصص الاستثمار مع برامج أبي الهول الصريع..

التضخم الذي أكل نصف المال في الديار... وألهب مع المضاربة والاحتكار أثمان العقار..، حتى غدت تثمن بالدولار...

آمال عقود الذهب..، «زعزوعة» وفنون الاحتيال والنصب...

لعبة الكبار في أسواق الين والدولار...

قرارات التجميد والمصادرة..، عن قمة الأمم صادرة..، بحق أبي الهول الذي اكتشف أسرار اللعب وبز اللاعبين..، واستقل بالقرار..، فاهتز نظام الكبار...

أبو الهول في الأفق البعيد على الشاطىء السعيد يحدث المحار عن جنون الاستثمار بالين والدولار..، عن لعبة الأقدار...
عن النظام العالمي الجديد..، وقرارات الأمم..، تصدر عن مجمع الأمم..
حيناً صارمة عالية الهمم..، سريعة البتر والجزم...
وحيناً مترددة مطاطة محسورة القوة والعزم...

وأردف ابن عربان يقول:

«طال بنا على المصطبة أمام الدار المقام..، وبدد كمال البدر مسدول

الظلام...
وما زال أبو العيال يردد دعوته لي أن أدخل الدار فأنام.. وأستريح من عناء السفر وطول الحديث والكلام...
لكنني ـ قال ابن عربان ـ في جلستي تلك على المصطبة..، كنت في أعذب ممن تلفه في المنام أرق الأحلام...
لذلك كنت أكرر رفضي ترك هذا المجلس الأنيس..، وأجد في الذهاب إلى النوم خسارة لأطيب ما تشتهيه النفوس...

نسيم عليل، ياسمين ظليل..، وبدر يطل مع الأنسام من بين الأغصان..، يغمز السمار ويلهب حماس كروان الليل فيطرب بكل ألوان الألحان..

استأذنت أم العيال...، وقام معها الأطفال استعدادا: ليوم تال وموكب من الآمال...
وبقيت مع أبي العيال..، أتابع حديثه يصف الحال...
يترحم ـ نادماً ـ على زمان قضاه مغترباً يجمع المال ليضيع...، لا يسمن ولا يغني من جوع...، والمال هنا بين يديه في الثرى..، يغني الورى

يبذل الجهد هناك دون سميع...، ويثمر الجهد هنا لا يضيع...

يصدق العزم هناك، يحسن الصنيع...
يشحذ الهمم..، دون شفيع...
فالناس هناك تعودوا النظر خارج الديار...
لهثوا وراء لعبة الاستثمار.. وأصابهم المس وهم يجرون خلف شيطان رجيم...
والخير في الديار عميم..، والرزق في الدار بركة ونعيم...

قال ابن عربان:

«وما زال أبو العيال يصف لي ميسور الحال..، وصالح الإعمال..، والليل يتقدم بنا رقيقاً ناعماً يعز عن الوصف وينأى عن الخيال..

وآل حديث أبي العيال بعد ذلك إلى شيء من التنهيد.. كان يبدو أنه يحاول به أن يختتم الحديث ليقول

«الحال كما ترى يا ابن عربان بألف خير والحمد لله.. لا يشوبها إلا ما يشاع من لغط يدور حول (مختار الديار)...

عن أصداء سياسة يقودها صديق صدوق للضابط الكبير من جند المختار...

صديق يدعي التجارة ويعقد المريب من الصفقات..

يستورد الغذاء المجمد والمعلبات..

يضارب في الأرض والعقارات...

يبيع ويشري ما ندري وما لا ندري

يغدق على الأصحاب في دوائر المختار الهبات..

وعلى الضباط والجنود... وعلى الجمارك في الحدود...، المنح والأعطيات...

فيفتح له موصود الأبواب..، وييسر له عسير المعاملات...

وأردف أبو العيال يقول:

«قيل إن صاحبنا هذا ـ تاجر المعلبات والعمولات ـ قد أصابه الضرر من نتاج الأرض والثمر

ذلك أن قدومي مع العيال إلى الجبال..، نفلح الأرض ونجني الحبوب والثمار..، آثار حمية الجوار كل الجوار..، ممن كان قد هجر الأرض واعتاد التسكع والتسول لدى الضابط الكبير من جند المختار...

ولم يكن الضابط الكبير ليبخل بالأعطيات..

يأخذها الناس ليشتروا بها ما استورده صديقه من غذاء مجمد ومعلبات...

مستغلين في ذلك كرم المختار الذي راح يستدين...

وميزانية الدار وقد غدت من الإفلاس قاب قوسين...

عاد الجوار ـ ممن اعتاد التسكع أمام دار الضابط الكبير ـ إلى الأرض وما هي إلا

شهور قليلة حتى اخضرت الأرض حولنا وجاء الحصاد بالخير العميم
شعر الناس بلذة الجهد يثمر.. وببركة الأرض تعطي..، والكرامة تعود..
فتركوا التزلف للضابط الكبير...
وزهدوا بالمستورد من الطعام...
وأقلعوا عن المعلب من اللحوم والأجبان والألبان
واستغنوا عن المجمد بالطازج المجدد..، وعن المعلب بالجديد المجرب...
فما هي إلا شهور حتى أصابت بعدها تاجرنا الذي كان رابحاً بجهالة الناس وكرم المختار أزمة تصريف حادة... بات معها موقوف الحال بالخسارة مهدد..، وبالإفلاس وضياع المال موعود...

وأردف أبو العيال يقول:

«لذلك يشاع ـ يا ابن عربان ـ أن تاجرنا ذاك ما زال يغري المختار من خلال الضابط الكبير بإصدار قرار يحظر فيه زراعة القمح والخضار..، أو إنتاج العلف والألبان والثمار..، واستبدالها بزراعة الأقطان..
ينفرد التاجر وصديقه، بل قل شريكه، الضابط الكبير بشرائها بأسعار محددة..، لتصدر بشكلها الخام..، لمصانع الغرب الهمام...!!
فيشتري بثمنها مخلفات الطعام من المجمدات والمعلبات...
يبيعها بما شاء سن أسعار للغفلة من الأنام
من جند المختار والأعوان..، أو منتجي القطن ـ قسراً ـ دون الطعام...!!

لكننا ـ قال أبو العيال ـ لا نعتقد أن مختارنا ذا العقل الراجح سينصاع لسياسة عشواء يقودها مغرض ذو قصد للثراء غير المشروع واضح...
وسعي مفضوح لكسب يرهق الديار بوخيم الآثار...

قال ابن عربان:

«وبدوري طمأنت أبا العيال بألا يشغل البال بخواطر بعيدة الاحتمال..، ومخاوف لا داع لها..، فالأمور ستجري في مجراها الصحيح بإذن الله...

ورجوت وقد غلبني التثاؤب أن تأتي الأيام بكل الخير لأبي العيال ولكل من جد وعمل من الجوار. . .

وقبلت عندها دعوة أبي العيال لي دخول الدار لأنام. . .
قمت متثاقلاً. .، أود لو بقيت على المصطبة لأنام في رفقة البدر وصحبة الأنسام. . .
لولا لسعة البرد اللذيذ التي جعلتني أحوج لدفء الدثار تحت سقف الدار. .
فدلفت إلى السرير يرافقني شعاع الضياء من نافذة قريبة تركت أحد مصراعيها مواراباً تنقل لي النسمة من خلاله عبير الأرض يضمخها الندى. .، ومن الياسمين أرق الشذى. . .

* * *